

سلوك المتقين



فـالمـتقـونـ فـيـهـاـ هـمـ أـهـلـ الـفـضـائـلـ:ـ مـنـطـقـهـمـ الصـوابـ،ـ وـمـلـبـسـهـمـ الـاقـتصـادـ،ـ وـمـشـيـهـمـ التـواـضـعـ.ـ غـضـبـوـاـ أـبـصـارـهـمـ عـمـاـ جـرـمـاـ عـلـيـهـمـ،ـ وـوـقـفـواـ أـسـمـاءـهـمـ عـلـىـالـعـلـامـ النـافـعـ لـهـمـ.ـ قـلـوبـهـمـ مـحـزـونـةـ،ـ وـشـورـهـمـ مـأـمـونـةـ،ـ وـأـجـسـادـهـمـ نـحـيفـةـ،ـ وـحـاجـاتـهـمـ خـفـيفـةـ،ـ وـأـنـفـسـهـمـ عـفـيـفـةـ،ـ صـبـرـواـ أـيـامـ قـصـيرـةـ أـعـقـيـتـهـمـ رـاحـةـ طـوـبـيـلـةـ،ـ تـجـارـةـ مـرـبـحـةـ،ـ يـسـرـهـاـ لـهـمـ رـبـعـهـمـ.ـ يـمـرـحـ الـحـلـمـ بـالـعـلـامـ،ـ وـالـقـوـلـ بـالـعـمـلـ.ـ تـرـاهـ قـرـيبـاـ أـمـلـهـ،ـ فـلـيـلـاـ زـلـلـتـهـ،ـ خـاشـعـاـ قـلـبـهـ،ـ قـانـعـةـ نـفـسـهـ،ـ مـنـزـورـاـ أـكـلـهـ،ـ سـهـلـاـ أـمـرـهـ،ـ حـرـيزـاـ دـيـنـهـ،ـ مـيـدـةـ شـهـوـتـهـ،ـ مـكـظـوـمـاـ غـيـرـهـ.ـ

المتقون والجوارح:

لقد استطاع المتقون أن يملكون جوارحهم وبسيطروا عليها وبفعّلوا نشاطها لكسب الآخرة، وقد فصل الإمام (ع) ذلك وأشار إلى صفة كل جارحة من جوارحهم، في هذا المقطع الموجز والمليء بالمعاني التي ينبغي الوقوف عندها.

سلامة المنطق:

مـنـ طـقـقـهـمـ الصـوابـ - بـعـيدـاـ فـحـشـهـ - لـيـنـاـ قـولـهـ - إـنـ صـمـمـتـ لـمـ يـغـمـمـهـ صـمـمـتـهـ

إن اللسان من أصغر الجوارح وأخطرها على مصير الإنسان، ومن أصعب الجوارح ضبطاً وسيطرةً، والمتقون قد استطاعوا السيطرة على هذا اللسان، هذه السيطرة التي تظهر من خلال المفردات التالية:

1- منطق صواب أو صمت:

إن نطقوا فمنطقهم الصواب، فلا يسكنون عما ينبغي أن يقال فيكونون مفترطين، ولا يقولون ما ينبغي أن يسكت عنه فيكونون مفترطين، "إن صمت لم يغمه صمته، وإن ضحك لم يعل صوته".

الإنسان بأمس الحاجة إلى ما يعالج همومه وغمومه وخيالاته النفسية التي تقوده إلى الاضطراب والقلق النفسي والصمت الواعي خير علاج لذلك.

والصمت المقصود هو الذي يرجع على الإنسان بمردود إيجابي في مختلف حياته الدنيوية والأخروية.

وله مميزات وثمار ونتائج عديدة على مستوى:

التربية الفكرية: قال أبو الحسن (ع): "من علامات الفقه العلم والحلم والصمت، إنَّ الصمت باب من أبواب الحكمة، إنَّ الصمت يكسب المحبة إنَّه دليل على كلِّ خير".

التربية الروحية: لأنَّ له مدخلية كبيرة في تطهير القلب وتهذيب النفس الأمارة بالسوء ومقدمة للعبادة بل من أفضل العبادات حيث يحقق الهدف للعبادة. فهي (ثواب الأعمال) و(الخصال) عن أبي عبد الله (ع) قال: "ما عبد الله بشيء مثل الصمت، والمشي إلى بيت الله".

التربية الاجتماعية: والصمت كما يرسي الفرد المسلم التربية الحسنة كذلك يهذب المجتمع ويرسيه من خلال تربية الأفراد ويتدخل في كثير من مشاكل المجتمع ليحلها فهو يحقق للمؤمن الصامت الصفات التي يتقدم بها في المجتمع ويقودهم إلى شاطئ الأمان والسلام: فعن الإمام علي (ع) في نهج البلاغة: "بكثرة الصمت تكون الهيبة".

2- البعد عن الفحش في الكلام:

"وتراه بعيداً فحشه"، والفحش بمعناه الظاهر من الموبقات العظيمة، وقد حذر منه في الأخبار الكثيرة وبشكل الفحش بالنار، فعن رسول الله (ص): "إنَّ الله حرم الجنَّة على كلِّ فحشٍ أشدُّه ذي قليل الحباء لا يبالى ما قال ولا ما قيل له" ومن تعرضاً للناس بشتمهم وهو يعلم أنهم سيردون عليه في نفس الأسلوب، فذلك لا يبالى ما قال ولا ما قيل له.

3- لين القول:

"ليَّنا قوله" يتكلَّم بالرُّفق ولا يغلط في كلامه، فإنَّ الرُّفق في القول يوجب المحبة ويجلب الألفة ويدعو إلى الإجابة عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذلك أمر الله عزَّ وجلَّ موسى وهارون - عليهما السلام - عند بعثهما إلى فرعون بأن يقول له قوله ليَّنا ليكون أسرع إلى القبول وأبعد من الذُّفور.

وعن الإمام الصادق (ع): كان أمير المؤمنين (ع) يقول: "ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم في لين كلامك وحسن بشرك، ويكون استغناوك عنهم في نراة عرضك وبقاء عزلك".

4- التواضع:

"مشيهم التواضع" إنَّ التواضع من أعظم ما يتخلق به المرء فهو جامع الأخلاق وأساسها، بل ما من خلق في الإسلام إلا وللتواضع منه نصيب، فيه يزول الكبر، وينتشر المصدر، ويعمل الإيثار، وتزول القسوة والأنانية والتشفى وحب الذات وفي رواية عن الإمام الصادق (ع) في ما أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى داود: "كما أنَّ أقرب الناس من الله المتواضعون كذلك أبعد الناس من الله المتكبرون".

والمقصود من التواضع المحمود أن يترك المرء التطاول على عباد الله والترفع عليهم والإزراء بهم حتى مع وقوع الخطأ عليه، ومن ذلك أيضاً التواضع للدين والاستسلام لشرع الله بحيث لا يعارضه المرء برأي ولا هو. وأن ينقاد لما جاء به خاتم الرسل (ص)، وأن تعبد الله وفق ما أمرك به.

وليس من التواضع الاستكانة أمام نصرة دين الله سبحانه، والذي يسبب التخاذل وهجر النصيحة وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخنوع أمام الباطل، والبعد عن نصرة المظلوم.

ومما ذُكر في صفات رسول الله (ص): "لقد كان (ص) جمّاً التواضع، وافر الأدب، يبدأ الناس بالسلام، وينصرف بكله إلى محدثه، صغيراً كان أو كبيراً، ويكون آخر من يسحب يده إذا صافح، وإذا تصدق وضع الصدقة، وإذا جلس مجلس حيث ينتهي به المجلس، لم يُرِّ ماداً رجليه قط، ولم يكن يأنف من عمل لقضاء حاجته، أو حاجة صاحب أو جار، فكان يذهب إلى السوق، ويحمل حاجته بيده ويقول: أنا أولى بحملها وكان يحب دعوة الحر والعبد والمسكين، ويقبل عذر المعتذر، يخصف نعله، ويكنُس داره، ويخدم نفسه، ويعقل بغيره، وكان في مَهْنَة أهله، وكان يأكل مع الخادم، ويقضي حاجة الضعيف والبائس، وكان يمشي هوناً خافضاً الطرف...".

القناعة:

قَانِعَةٌ نَفْسُهُ - حاجاتهم خفيفة

قال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَذُكْرُهُ يُبَيَّنُهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) (النحل/97).

روي عن النبي (ص) انه قال في معنى الحياة الطيبة، إنها القناعة والرضا بما قسم الله تعالى.

وتتجسد حالة القناعة عند المؤمن في: التفاؤل وبسط الوجه، وعدم الشكوى، كذا وصف الله تعالى أهل القناعة والغففة فقال: "يحسهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيما هم لا يسألون الناس إلحاها".

والقانع على درجة من الإيمان وحسن الظن بالله تعالى، والثقة به في كل أحواله، فهو يعلم أن الله عز وجل لا يمنع إلا لمصلحة العبد وهو العزيز الحكيم، يهب لحكمة، ويمنع لحكمة، ويقدر الأرزاق لحكمة. قلبه مطمئن بالله تعالى، وروحه متوجهة إلى الآخرة، لم يُسرِّ قلبه بزينة الدنيا الزائلة.

عن الإمام الرضا (ع): "لا يسلك طريق القناعة إلا رجلان، إما متبع ي يريد أجر الآخرة، أو كريم متبره عن لئام الناس".

ثم القناعة تأتي بخusal أخرى كريمة، تبينها النصوص الشريفة التالية: عن أمير المؤمنين (ع): "من قنعت نفسه، أعادته على النزاهة والغفاف - القناعة رأس الغنى - كفى بالقناعة ملكاً - من عز النفس لزوم القناعة - ثمرة القناعة العز - أعون شيء على صلاح النفس: القناعة".

غض البصر ووقف السمع:

"غضوا أبصارهم.. ووقفوا أسماعهم..".

ولأن السمع والبصر نعمتان فهما تستوجبان شكر الله المنعم، وحق الشكر أن لا تستخدم زعماً في معصيته، بل يذكر الإمام السجاد (ع) لهما حقوقاً فيقول: وأما حق السمع فتنزيهه عن أن يجعله طريقاً إلى قلبك إلا لفوهة كريمة تحدث في قلبك خيراً، أو تكسب خلقاً كريماً، فإنه باب الكلام إلى القلب،

يؤدي إليه ضرب المعاني على ما فيها من خير أو شر، ولا قوة إلا بالله.

إنّ جهاز السمع هو الأداة الفعالة في تكوين شخصية الإنسان، وبناء سلوكه، ولذلك بما ينفله من المسموعات التي تنطبع في دخائل الذات وقراره النفس، ومن حقه على الإنسان أن يجعله بريداً لنقل الآداب الكريمة، والفضائل الحسنة، والمزايا الحميدة ليتأثر بها، وتكون من صفاته وخصائصه.

وهكذا يفعل المتقوون الذين (وقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم) في الدنيا والآخرة الموجب لكمال القوّة النظرية والحكمة العملية، وأعرضوا عن الإصغاء إلى اللّغو والأباطيل كالغيبة والغناوة ونحوها، وقد وصفهم الله سبحانه بذلك في قوله: (وَالْأَذْدِينَ هُمْ عَنِ الدَّغْوِ وَمُعْرِضُونَ) (المؤمنون/ 3)، وقد ورد عن الإمام الباقر (ع): "الغناء مما وعد الله عليه النار" وتلا هذه الآية: (وَمَنِ النَّاسُ مَنْ يَشَاءُ تَرِي لَهُ وَالْحَدِيثُ لَيُضَلِّلُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عَلِمٍ وَيَتَّخِذُهَا هُنُّ وَآأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِمِّينُ) (لقمان/ 6)، وعن الإمام الصادق (ع): "بيت الغناء لا تؤمن فيه الفجيعة، ولا تجاب فيه الدعوة، ولا يدخله ملك".

"وما حُق بصرك فغضنه عما لا يحل لك، وترك ابتداله إلا لموضع عبرة تستقبل بها بصراً أو تستفید بها علمًا فإنّ البصر باب الاعتبار" إنّ للبصر حقاً على الإنسان، وهو حجمه عن النظر إلى ما حرمه الله الذي هو مفتاح الولوج في اقتراف الآثام، فينبغي للمسلم أن يغضّ بصره عما لا يحل له، وأن ينظر إلى مواضع العبر ليستفيد منها في بناء شخصيته، كما أنّه ينبغي له أن يستفید ببصره علمًا يهدى به نفسه، وينفع به مجتمعه.

فالمتقوون غصّوا بأبصارهم عمّا حرم الله عليهم امتثالاً لأمره تعالى: (قُلْ لِلَّهُمْ وَمِنْيَنَ يَغْضِبُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَرْكَانُ اللَّهِ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) (النور/ 30).

وعن الإمام الصادق (ع): "كلّ عين باكية يوم القيمة غير ثلا ثالث أعين: عين غصّت عن محارم الله، وعين سهرت في طاعة الله، وعين بكت في جوف اللّليل من خشية الله".

عفة النفس:

" وأنفسهم عفيفة".

وفي رواية عنه (ع): "ما المجاهد في سبيل الله بأعظم أجراً من قدر فعفّ، لكاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة"، وهذا الحديث ترجمة لحديث الجهاد الأكبر مع النفس الذي يتجلّى بصيانته النفس والتّنّزه عن الدنيا.

ومن أهم موارد العفاف: الطعام والشهوة. قال تعالى: (وَمَنْ كَانَ غَنَّيًّا فَلَيَسْتَعْفِفُ) (النساء/ 6)، (وَلَيَسْتَعْفِفَ الرَّذِينَ لَا يَجِدُونَ زِكَارًا حَتَّى يُغْنِنَهُمُ اللَّهُمَّ مَنْ فَهِلَّهُ) (الذّور/ 33)، وعن رسول الله (ص): "أحب العفاف إلى الله تعالى عفة البطن والفرج".

خلامة . . .

التواضع

"مشيم التواضع" إنّ التواضع من أعظم ما يتخلق به المرء فهو جامع الأخلاق وأساسها، بل ما من خلق في الإسلام إلا وللتواضع منه نصيب، فيه يزول الكبر، وينشرح الصدر، ويعم الإيثار، وتزول القسوة والأنانية والتشفي وحب الذات.

"لِيَنَا قَوْلُهُ" يتكلّم بالرّفق ولا يغلط في كلامه، فإنّ الرّفق في القول يوجب المحبّة ويجلب الألفة ويدعو إلى الإجابة عند الأمر بالمعروف والنعي عن المنكر.

سلامة المنطق

إنّ اللسان من أصغر الجوارح وأخطرها على مصير الإنسان، ومن أصعب الجوارح ضبطاً وسيطرةً، والمتقون قد استطاعوا السيطرة على هذا اللسان.

القناعة

والقانع على درجة من الإيمان وحسن الظن بما تعلّى، والثقة به في كلّ أحواله، فهو يعلم أنّ الله عزّ وجلّ لا يمكن إلا لمصلحة العبد وهو العزيز الحكيم، يهب لحكمة، ويمتنع لحكمة، ويقدر الأرزاق لحكمة.

غض البصر ووقف السمع

السمع والبصر نعمتان فهما تستوجبان شكر الله المنعم، وحق الشكر أن لا تستخدم نعم الله في معصيته.

عفة النفس

ومن أهم موارد العفاف: الطعام والشهوة. ▷

المصدر: كتاب المتقون/ سلسلة الدروس الثقا فيه (91)